المذاهب الفقهية
وريادة مذهب الإمام مالك بالأندلس

إعداد
الدكتور/ موسى رزق ريحان

مقدمة

الحمد لله القائل فى محكم التنزيل « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ » الحديد.

الحمد لله الذى يقول فى سورة الرحمن «وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ».

والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبدالله ورسوله القائل: من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين» وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

فهذا البحث المعنون بالمذاهب الفقهية فى الأندلس وسيادة مذهب مالك بن أنس رضى الله عنه هو فصل من كتاب عنوانه «شخصية الإسلام القضائية فى الأندلس، فهو فصل قد سبق بفصول وقد تلته فصول أيضا، فجاء كحبة من عقد انتزعت من سلكه فكانت فريدة وحيدة، آثرت مجلة الكلية بهذه الحبة. وانى لأرجو أن يكون فيها النفع والخير لى ولكل من يطلع على هذا البحث وهذه المجلة.

المذاهب الفقهية وسيادة مذهب الإمام مالك بالأندلس

مذهب الأوزاعى :

من الأفكار الشائعة لدى العلماء والمؤرخين أن الأندلس كانت تتمذهب بمذهب الإمام الأوزاعى إمام أهل الشام. وذلك على أيام الخلافة الأموية بدمشق ثم تمذهبت بمذهب الإمام مالك إمام دار الهجرة، وذلك بعد ذهاب خلافة بنى أمية بالمشرق وقيام الإمارة الأموية بالأندلس. وبعبارة أخرى أن مذهب الإمام مالك نسخ مذهب الإمام الأوزاعى، ويمضى الباحثون فى تعليل انتشار مذهب مالك وسيادته بالأندلس. وكأن الأندلس لم تعرف غير هذين المذهبين من المذاهب الإسلامية الأخرى.

ونحن لا ننكر على الدارسين قولهم أن الأندلس كانت أوزاعية ثم تحولت ماليكة، وأن السيادة تمت لمذهب مالك حقيقة، وإنما الذى نحب أن نضيفه أو نوضحه هو أن الأندلس لم تكن على غير علم ببقية المذاهب الفقهية الأخرى أو أنها كانت خلوا من تلك المذاهب، والأمر الآخر هو أن التعليل لانتشار مذهب مالك ونسخه لمذهب الأوزاعى يحتاج الى إعادة نظر.

وربما كانت عبارة المقرى: «ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك»[1] هى التى أوحت الى العلماء بأن الأندلس كانت خلوا من المذاهب الفقهية الأخرى، بالاضافة إلى كثرة علماء المالكية بالأندلس، وكثرة تواليفهم فى المذهب المالكى ورجاله.

وقبل أن نأتى على ذكر المذاهب الفقهية التى عرفها الأندلس الإسلامى غير مذهب الأوزاعى ومذهب مالك، وقبل أن نناقش مسألة شيوع مذهب مالك وسيادته بالأندلس نود أن نذكر بعض الحقائق التاريخية الآتية والتى قد تضع أيدينا على مفاتيح لتلك القضايا ومن ذلك مثلا: ـ

(١) المقرى ـ نفح الطِّيب جـ ١ ص ١٠٤

أ - أن فتح الأندلس قد تم فى العام الثاني والتسعين من الهجرة الشريفة ، أى قبل مولد الإمام مالك بن أنس.

ب - أن غالبية أجناد الأندلس كانت من أجناد الشام ومن لحق بهم ممن أسلم من البربر، وأن أهل الأندلس كانوا من أشراف العرب ومن مختلف القبائل العدنانية والقحطانية.

جـ - أن عددا من التابعين دخلوا الأندلس، ومعهم فقه الصحابة رضى الله عنهم. ومن هؤلاء التابعين: حنش بن عبدالله الصنعانى «صنعاء الشام»، وعلى بن رباح اللخمى، وأبو عبدالرحمن الحبلى عبدالله بن يزيد المتوفى بأفريقية سنة ١٠٠ هـ ، وموسى بن نصير، وعبدالله بن يزيد المعافرى وهو يروى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبدالله بن عمر، وعقبة بن عامر، وفضالة بن عبيد وغيرهم(٢).

ذكر الحميدى فى مقدمته لكتابه «جذوة المقتبس» ص ٦ عددا من أسماء التابعين الذين دخلوا الأندلس، وذكر أنه أدرج بقيتهم فى الأبواب. قال: وسنذكر إن شاء الله فى الأبواب ممن دخل الأندلس للجهاد من التابعين جماعة ومنهم: محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى يروى عن أبى هريرة، ومنهم حنش بن عبدالله الصنعانى، يروى عن على ابن أبى طالب، وفضالة بن عبيد، ومنهم عبدالرحمن الغافقى يروى عن ابن عمر، ومنهم زيد بن قاصد السّكسكى المصرى، يروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص، ومنهم موسى بن نصير الذى ينسب اليه الفتح، ويروى عن تميم الدارى.

ومعنى هذا ببساطة أن فقه أهل المدينة انتقل الى الأندلس مع هؤلاء الفاتحين قبل ظهور مذهب مالك رضى الله عنه. ويمكن القول: أن الأندلس لم تكن لتقف عند مذهب فقهى واحدا، ولعل الاجتهاد هو الذى كان عليه المعول، وكون الأندلس دار جهاد ورباط قد يتفق مع روح الاجتهاد.

وعلى سبيل المثال فان عبدالرحمن بن عبدالله الغافقى أمير الأندلس والمستشهد فى معركة بلاط الشهداء سنة ١١٥ هـ كان يروى عن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز وعبدالله بن عياض(٣).

---

(٢) ابن الفرضى - تاريخ علماء الأندلس رقم (٦٣٣)

(٣) ابن الفرضى - تاريخ علماء الأندلس رقم (٧٧٢) .

ومعنى هذا أن فقه أهل المدينة وروايتهم أقدم فى الدخول الى الأندلس، بل والوجود من مذهب مالك نفسه. أى أن أصلا من أصول مذهب مالك وهو رواية أهل المدينة وفقههم كان موجودا بالأندلس. ولا يحتاج إلا الى روافد تغنيه أو تغذيه، وهذا ما سوف نشير إليه بعد قليل.

وأما القول بالاجتهاد وعدم التقليد فلدينا أكثر من شاهد على ذلك، فمصعب بن عمران كان راوية عن الأوزاعى وكان لا يتقلد مذهبا، بل يقضى بما يراه صوابا(٤)، وكذلك الشأن بالنسبة للقاضى محمد بن بن بكر الأشعرى، فربما نحا فى بعض أحكامه أنحاء مصعب بن عمران أحد القضاة قديما بقرطبة فكان لا يقلد مذهبا ويقض بما يراه صوابا(٥). فقد أشار إليه المقرى فى كتابه نفح الطيب قائلا: «واعلم أن أهل الأندلس كانوا فى القديم على مذهب الأوزاعى وأهل الشام منذ أول الفتح، حتى كانت دولة الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين، حيث انتقلت الفتوى الى رأى مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا، بل والمغرب وذلك برأى الحكم واختياره»(٦).

أما سبب ذيوع مذهب الأوزاعى فهو يرجع الى عدة عوامل منها ما كان عليه الإمام الأوزاعى من تقوى وصلاح ورباط وجهاد وعلم وعمل. ومعروف أن الإمام الأوزاعى استوطن بلاد الشام فذاع مذهبه بها، ومنها ما يرجع الى المذهب نفسه واعتماده على الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاجتهاد وحرية الفكر وعدم التقليد، ومنها كون الإمام الأوزاعى كان مجاهدا ومرابطا، والأندلس كانت دار رباط وجهاد مما أحدث توافقا فى الرأى والفكر ومواجهة الأحوال المتجددة والمتغيرة، ومنها أن الأجناد الستة كانت شامية، مما يعنى تأثر علماء العسكر ورجال الجيش بالمذهب الذى كان شائعا فى بلادهم الشامية، فلم يكن فقه الأوزاعى بغريب عنهم.

ومنها وجود تلامذة للأوزاعى بالأندلس، فهناك مثلا أسد بن عبدالرحمن السبى

---

(٤) ابن سعيد ـ المغرب فى حلى المغرب ص ١٤٤ جـ ١ وانظر: المرقبة العليا ص ٤٥، ٤٧ وتاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضى رقم (١٤٣٢)

(٥) تاريخ قضاة الأندلس ـ ص ١٤٢ . وانظر فى ترجمته ـ المرقبة العليا للنباهى من ص ١٤١ ـ ١٤٧، توفى شهيدا فى وقعة طريف عام ٧٤١ هـ

(٦) النفح ـ جـ ٤ ص ٢١٤

الالبيرى كان يروى عن مكحول والأوزاعى، وقد ولى قضاء كورة البيرة فى امرة عبدالرحمن الداخل وبقى حيا حتى بعد سنة ١٥٠ هـ(٧).

ومعنى هذا أنّ مذهب الأوزاعى ظل يعمل به بعد قيام الدولة الأموية بالأندلس. ومن ذلك أيضا صعصعة بن سلام الشّامى فقد كان يروى عن الأوزاعى وعن سعيد بن عبدالعزيز ونظرائهما من الشاميين، وكانت الفتيا دائرة عليه بالأندلس أيام الأمير عبدالرحمن بن معاوية وصدرا من أيام هشام بن عبدالرحمن، وولى الصلاة بقرطبة.

وفى أيامه غرست الشجر فى المسجد الجامع، وهو مذهب الأوزاعى والشاميين، ويكرهه مالك وأصحابه، ويروى أنّه أول من أدخل الحديث الى الأندلس. وقد توفى صعصعة سنة ١٩٢ هـ(٨).

ومعنى هذا أنّ مذهب الأوزاعى قد ظل يعمل به، ويفتى به حتى العقد الأخير من القرن الثانى الهجرى. بل نجد من يتمسك بهذا المذهب الى أبعد من هذا الزمن. فزهير ابن مالك البلوى وهو من أهل قرطبة كان فقيها على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بنى أمية.

ولكن فى ترجمة أبى كنانة زهير بن مالك البلوى المتوفى فى صدر أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن أى بعد سنة ٢٣٨ هـ ما يشير الى انحسار مذهب الأوزاعى، واتساع نطاق مذهب مالك، ومن ذلك ما يروى من أنّ عبدالملك بن حبيب كان يعذل أبا كنانة زهير بن مالك البلوى على انحرافه عن مذهب أهل المدينة وتمسكه برأى الأوزاعى، ويروى أن زهير كان يردّ على عبدالملك حسدتنى إذا انفردت بالأوزاعية دون أهل البلد(٩).

ويغلب على الظنّ أنّ تحول الأندلس عن الأوزاعية الى المالكية انما كان على أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل. ومما يؤكد ذلك أن عبدالملك ابن الحسن بن محمد بن زريق... بن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان مفتيا فى

(٧) الحميدى ـ جذوة المقتبس ـ رقم (٣٢٠) ص ١٧٢. وانظر: تاريخ علماء الأندلس ترجمته (٢٣٩) جـ ١ ص ٧٤

(٨) تاريخ علماء الأندلس ـ لابن الفرضى ـ رقم (٦١٠) جـ ١ ص ٢٠٣، وانظر: جذوة المقتبس للحميدى رقم (٥١٠) ص ٢٤٤

(٩) تاريخ علماء الأندلس ـ لابن الفرضى ـ رقم (٤٥٦) جـ ١ ص ١٥٣

أيام هشام بن عبدالرحمن بن معاوية وأيام عبدالرحمن بن الحكم. وأنه كان يذهب مذهب أبي عمرو الأوزاعي ثم رجع الى مذهب المدنيين.

وربما كان لرحلته الى المشرق وسماعه من أشهب بن عبدالعزيز وعبدالرحمن ابن القاسم وابن وهب وغيرهم من المدنيين أثر مباشر في تحوله عن الأوزاعية الى المذهب المالكي. وقد توفي عبدالملك هذا في آخر أيام الأمير عبدالرحمن بن الحكم أي حوالي سنة ٢٣٢ هـ(١٠).

مذهب الإمام مالك: دخوله الأندلس وانتشاره:

أما السبب في تحول اهل الأندلس عن مذهب الأوزاعي واعتناقهم لمذهب الإمام مالك. فللعلماء في ذلك آراء، وقد ذكر بعضا منها المقري قائلا: «في دولة الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل انتقلت الفتوى الى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا بل والمغرب، وذلك برأي الحكم واختياره، واختلفوا في السبب المفضي لذلك فذهب الجمهور الى أن سببه رحلة علماء الأندلس الى المدينة، فلما رجعوا الى الأندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه، وجلالة قدره، فاعظموه. وقيل ان الإمام مالك سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصف له سيرته فأعجبت مالكا لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن مرضية.... فقال الإمام مالك رضي الله عنه لذلك المخبر: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملكلم، أو كلاما هذا معناه فنميت المسألة الى ملك الأندلس، مع ما علم من جلالة مالك ودينه، فحمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعي والله أعلم»(١١).

ومن هذه الآراء أن الأندلسيين الذين ارتحلوا الى المشرق إما للحج وإما للعلم قد تلمذوا للإمام مالك وأخذوا عنه الموطأ وأدخلوه الى الأندلس، وإن كانوا يختلفون في أول من أدخل الموطأ الأندلس وعمل على إذاعته ونشره، فابن القوطية يقول: «انه في أيام الأمير عبدالرحمن بن معاوية دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع بن أبي نعيم، وكان له مكرما ومتكررا عليه بالصلة في منزله»(١٢). وكان يحفظ الموطأ ظاهرا وعرض عليه القضاء فأبى. توفي في أيام الحكم سنة ١٩٩ هـ.

(١٠) ابن الفرضي ـ تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ـ رقم (٨١٥)

(١١) النفح ـ جـ ٤ ص ٢١٤

(١٢) ابن القوطية ـ تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٩. وابن الفرضي ترجمة رقم (١٠١٥)

أما الحميدى فهو يرى أن زياداً اللخمى وهو زياد شبطون وهو فقيه أهل الأندلس على مذهب مالك بن أنس هو أول من أدخل فقه مالك بن أنس(١٣). وكانوا قبل ذلك على مذهب الأوزاعى.

هذا بينما يرى الإمام ابن حزم أن انتشار مذهب مالك بالأندلس انما يعود الى السلطان والى منزلة يحيى بن يحيى الليثى عنده. وفى هذا الصدد يقول: مذهبان انتشرا فى أول أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبى حنيفة، ومذهب مالك بن أنس عندنا، فان يحيى بن يحيى الليثى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاء، فكان لا يلى قاض فى أقطارنا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه، ومن كان على مذهبه، والناس سراع الى الدنيا والرياسة فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه، وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم(١٤).

ويعلل ابن خلدون لذيوع مذهب مالك تعليلا حضاريا ومن ذلك قوله: «ان البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة(١٥).

ولا نرى لرأى ابن خلدون على رسوخ قدمه فى العلم وجلالة قدره وجها من وجوه الصواب، فالحجاز لم تكن متبدية لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام. بل الحجاز كان متحضرا وقد رسخ الإسلام جذور الحضارة فى ربوعه، وازدادت رسوخا على عهد الدولة الأموية نتيجة لتطور الحياة الاجتماعية واستقدام الرقيق الأجنبى من فارس والروم. واتساع الثراء نتيجة لمغانم الحروب والأنفال والاعطيات.

والوجه الآخر وهو أنّ الأندلس قد تحضرت وكذلك المغرب فكيف بقى المذهب المالكى هو السائد وكيف استوعب الحضارة الراقية ولم يضق بها ذرعا. والأمر الآخر هو أن الأندلس قد ورثت الحضارة القوطية كما ورثت الشام الحضارة البيزنطية، وكما ورثت العراق حضارة الساسانيين، وكيف انتشر المذهب فى ربوع مصر وهى وارثة الحضارة الفرعونية واليونانية والرومانية؟.

(١٣) الحميدى جذوة المقتبس ـ ترجمة رقم (٤٣٩) ص ٢١٨ . قيل انه توفى ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٤ هـ

(١٤) الحميدى ـ جذوة المقتبس ـ رقم (٩٠٩) ص ٣٨٤

(١٥) مقدمة ابن خلدون ـ ص ٤٤٩ . الطبعة التجاريه

وبعد ذلك كله كيف يقال عن الإسلام أنه يلائم البداوة ولا يلائم الحضارة، لأن ما يقال عن المذهب إنما هو ما يقال فى الحقيقة عن الإسلام إذ المذاهب الإسلامية إنما تستمد مقوماتها من الكتاب والسنة أصلا.

وهناك رأى بروفنسال ويرجعه صاحبه الى عوامل سياسية وعلمية فى آن واحد. فهو يرى مثلا أن الأندلس بانفصالها عن دولة بنى العباس قد تحققت لها وحدتها السياسية أو سيادتها السياسية، واتباعها لمذهب مالك وهو غير المذهب الحنفى الذى أخذت به الخلافة العباسية قد تحققت لها وحدتها المذهبية أو الدينية. وهو يرى أن مذهب مالك قد حل رسميا محل مذهب الأوزاعى على عهد الأمير الحكم وبأمر منه على أثر عودة بعض العلماء الأندلسيين من المدينة الى قرطبة حيث كانوا يتابعون تعاليم مالك بن أنس، فنقلوا الى الأمير المودة التى يكنها عالم المدينة العظيم والى الدولة الأموية بالأندلس(١٦).

وفى رأينا أن الأمر لو كان راجعا إلى أمور سياسية أو ما يشبه الاستقلال العقائدى لكان على الأندلس أن تبحث عن مذهب خاص بها لا يشاركها فيه مذهب آخر إذ المذهب المالكى كان سائدا بمصر وبعض بلدان المغرب العربى وهى تابعة للخلافة العباسية أو كان عليها أن تحافظ على مذهب الإمام الأوزاعى، وهو مذهب أهل الشام على عهد الخلافة الأموية بدمشق وجمهور جند الأندلس إنما كان من أهل الشام.

ومذهب الأوزاعى اندثر فى بلاد الشام كما اندثر أو ضعف شأنه فى بلاد الأندلس، وقد يرجع السبب فى ذلك الى تلامذة الأوزاعى نفسه إذا لم يحملوا علمه عنه ويقعدوا الى بثه ونشره وتطويره الى مذهب له أصوله وفروعه كما فعل تلامذة مالك وأصحابه، وما حدث لمذهب الأوزاعى هو ما حدث لمذهب الليث بن سعد بمصر. هذا بالاضافة الى ما عرف به تلامذة الأوزاعى من الأخذ بحرية الرأى، والاجتهاد فى الفقه.

وعلى العموم فمذهب أهل المدينة، وفقه أهل المدينة كان له جذور فى الأندلس، وكون الإمام مالك أمام دار الهجرة، وقعوده للعلم والتدريس بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم مدة طويلة وما كان عليه الإمام مالك نفسه من علم وتقوى وزهد وورع وحب فى نشر العلم

(١٦) ليفى بروفنسال ؛ حضارة العرب فى الأندلس ص ٤٣

والتحبب الى طلبة العلم، ورحلات الأندلسيين الى الحجاز للحج والزيارة وطلب العلم من العوامل التى أدت الى تأصيل مذهب مالك فى الأندلس وبلاد المغرب.

فأهل الأندلس كانوا يأخذون عن علماء مصر وهم فى طريقهم الى الحج وعلماء مصر يأخذون لقربهم من الحجاز ولمكانة المدينة المنورة من نفوسهم علم أهل المدينة، فانتقل علم المدينة الى الأندلس عن هذا الطريق، ويذكر فى هذا الصدد أشهب بن عبدالعزيز ومحمد بن القاسم، وسحنون صاحب المدونة، فالأولان أخذا عن مالك وسحنون أخذ عن ابن القاسم. وأخذ كثير من علماء الأندلس عن هؤلاء جميعا.

هذا فضلا عن أخذ أهل الأندلس عن مالك مباشرة. ومن هؤلاء الطلبة على سبيل التمثيل: الغازى بن قيس القرطبى فانه قد رحل فى صدر أيام الأمير عبدالرحمن بن معاوية فسمع من مالك بن أنس الموطأ. والأوزاعى وعبدالملك بن جريج، وقرأ القرآن على نافع بن أبى نعيم قارئ أهل المدينة، فانصرف الى الأندلس، فكان يقرأ عليه، وقيل انّه كان يحفظ الموطأ ظاهرا. وروى عنه عبدالملك بن حبيب الذى دعم مذهب مالك بالأندلس وأصبغ بن خليل وعثمان بن أيوب[١٧]. وقيل انّ الغازى قد عرض عليه القضاء فأبى.

ومن هؤلاء التلامذة الذين أخذوا عن مالك قرعوس بن العباس بن قرعوس وهو قرطبى، وقد ولى أحكام السوق «الحسبة»[١٨].

ومن تلامذة مالك بالأندلس: حفص بن عبدالسلام السّلمى، من أهل سرقسطة. رحل مع أخيه حسان وسمعا من مالك بن أنس رضى الله عنه، وكانا جميعا فاضلين. وكان حفص متفننا فى العلوم بليغا حاذقا، ويحكى أنّه لزم مالك بن أنس مدة سبعة أعوام، وكان مالك يدنى منزلته، وأدام الصيام أربعين سنة[١٩].

ومن هؤلاء داود بن جعفر بن أبى صغير من أهل قرطبة فانه سمع من مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وقد ولى قضاء قلنبريه[٢٠].

(١٧) ابن الفرضى ـ تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ـ رقم الترجمة (١٠١٥) توفى الغازى أيام الأمير الحكم وقيل سنة ١٩٩ هـ

(١٨) المصدر السابق ـ رقم الترجمة (١٠٨٤)

(١٩) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم (٣٦٥)

(٢٠) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم (٤٢٥) . والجذوة رقم ٤٣٠، والديباج جـ ١، ص ٣٥٩

وداود بن عبدالله القيسى من أهل اشبيلية فانه سمع من مالك الموطأ وكثيرا من علم مالك والليث، وكان مُرَشَّحاً لقضاء الجماعة. وقد توفى فى آخر أيام الأمير محمد[٢١] بن عبدالرحمن.

ومنهم زياد بن عبدالرحمن اللخمى المعروف بزياد شبطون جدّ بنى زياد فانه ارتحل وروى عن مالك بن أنس. وكان الأمير هشام بن الحكم قد أراده على القضاء فخرج هاربا بنفسه، فقال هشام ليت الناس كزياد حتى أكفى أهل الرغبة فى الدنيا وتوفى سنة ٢٠٤ هـ[٢٢]. وقيل توفى ١٩٣، وقيل ١٩٤، وقيل ١٩٩ هـ.

ومنهم زياد بن عبدالله الأنصارى قاضى طليطلة، فقد ارتحل وروى عن مالك، توفى سنة ٢١٢ هـ[٢٣].

ويحيى بن مضر القيسى من أهل قرطبة، فانه ارتحل وسمع من مالك بن أنس وسفيان ابن سعيد الثورى[٢٤]. وقتل فى أحداث الربض سنة ١٨٩ هـ وقيل سنة ١٩٠ هـ.

ومنهم سعيد بن أبى هند، فقد رحل ولقى مالك بن أنس وسمع منه، وكان مالك يسميه الحكيم، كما كان يسأل عنه ما فعل الحكيم الذى عندكم بالأندلس[٢٥]. وتوفى سعيد ابن أبى هند فى صدر أيام الأمير عبدالرحمن بن معاوية.

ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ عبدالرحمن بن موسى الهوارى من أهل استجه ، فانه رحل فى أول خلافة الإمام عبدالرحمن بن معاوية، فلقى مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة ونظرائهما من الأئمة. ولقى الأصمعى وأبا زيد الأنصارى، وغيرهما من رواة الغريب، وداخل العرب وتردد فى محالها.

---

(٢١) المصدر السابق ـ رقم (٤٢٦) . والجذوة رقم ٤٣١

(٢٢) المقرى ـ نفح الطيب ـ جـ ٢ ص ٤٥، طبعة إحسان عباس. وانظر: المرقبة العليا ص ١٢، وابن الفرضى ـ رقم (٤٥٨). والجذوة رقم ٤٣٩ والديباج جـ ١ ص ٣٧٠

(٢٣) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (٤٥٩)

(٢٤) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (١٥٥٣) ص ١٧٧. والجذوة رقم ٩٠٣

(٢٥) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (٤٦٩) جـ ١ ص ١٥٩، وانظر: النفح جـ ٢ ص ٤٦. والجذوة رقم ٤٨٦

وكان فصيحا ضربا من الأعراب ، وكان حافظا للفقه والتفسير والقراءات، وله كتاب فى تفسير القرآن، روى عنه العتبى محمد بن أحمد ، ومحمد بن عمر بن لبابه. وكان أبو موسى الهوارى عبدالرحمن المذكور إذا قدم قرطبة لم يفت يحيى بن يحيى ولا عيسى بن دينار ولا سعيد بن حسان حتى يرحل عنها، وقد استقضى على استجه أيام الأمير عبدالرحمن ابن الحكم(٢٦).

ولا ننس علما من أعلام المالكية بالأندلس وهو يحيى بن يحيى الليثى الذى نسب اليه الإمام بن حزم انتشار المذهب المالكى بالأندلس. لأنّه كان مكينا عند السلطان وفيه قال أبوعبدالله بن عبدالبر: وبه أى بيحيى بن يحيى الليثى، وبعيسى بن دينار، انتشر مذهب مالك، وانتحى الناس الى سماع الموطأ، من يحيى وأعجبوا بتقليده، فقلدوه وتبعوه. قال ابن الفرضى، وسمع منه رجال الأندلس فى وقته(٢٧).

ويروى أنّه لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة، وعظم القدر وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيى بن يحيى.

وكان الإمام مالك يسميه عاقل الأندلس. وقال ابن لبابه: فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها ابن حبيب، وعاقلها يحيى بن يحيى. وقال الشيرازى اليه انتهت الرئاسة بالأندلس فى العلم.

وكان الأمير عبدالرحمن بن الحكم يبجله بتبجيلة الأدب، ولا يرجع عن قوله ويستشيره فى جميع أمره، وفيمن يوليه ويعزله، فلذلك كثر القضاة فى مدته. وكان يفضل بالعقل على علمه. وألح عليه الأمير عبدالرحمن فى ولاية القضاء فأبى عليه، فوكل عليه من يقعده فى الجامع، وقال للناس: هذا قاضيكم فأبى على الحكم. فقال له يحيى: ان المكان الذى أنا فيه أنفع وخير لكم مما تريدون. انّا إذا تظلم الناس من قاض أجلستمونى، فنظرت لكم فى أحكامه. وإن كنت قاضيا فتظلم منى كما يتظلم من القضاة من تقعدون ينظر فى أحكامى فكفوا عنه(٢٨).

وكان ابن عبدالبر يقول فيه: «كان يحيى امام بلده المقتدى به، المنظور اليه، المعول عليه.

---

(٢٦) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (٧٧٨) جـ ١ ص ٢٥٧، ٢٥٨

(٢٧) القاضى عياض ـ ترتيب المدارك ـ جـ ٤ ص ٥٣٦. والجذوة ٩٠٩ وابن الفرضى /١٥٥٦

(٢٨) القاضى عياض ـ ترتيب المدارك ـ جـ ٢ ص ٥٣٧

وكان ثقة عادلا، حسن الهدى والسمت يشبّه سمته بسمة مالك. قال ابراهيم ابن باز: والله الذى لا إلا هو ما رأيت أوقر من يحيى بن يحيى قط ، ما رأيته يبصق، ولا يسعل فى مجلسه ولا يتحرك عن حاله، وكان أخذ بِزِىِّ مالك وسمته»(٢٩).

وأما عبدالملك بن حبيب الذى نعته محمد بن عمر بن لبابه بأنه عالم الأندلس، فله رحلة الى المشرق سمع فيها من عبدالملك بن الماجشون ومطرف بن عبدالله، وابراهيم ابن المنذر الجذامى، واصبغ بن الفرج، وأسد بن موسى، وجماعة سواهم. وانصرف الى الأندلس وقد جمع علما عظيما وكان مشاورا مع يحيى وسعيد بن حسان، وكان حافظا للفقه على مذهب المدنيين. وله مؤلفات فى الفقه والتواريخ، والأدب كثيرة حسان فمنها الواضحة التى لم يؤلف مثلها، والجوامع، وكتاب مقتل الصحابة، وغريب الحديث، وتفسير الموطأ، وحروب الإسلام، وسيرة الإمام فى الملحدين، وطبقات الفقهاء والتابعين، ومصابيح العدل وغير ذلك(٣٠).

ومن خلال تتبعنا لتلامذة الإمام مالك بن أنس وسيرتهم فى العلم والعمل والقضاء من أهل الأندلس، نرى أنّ انتشار المذهب المالكى بالأندلس انما تم على أيديهم، وبجدهم الذاتى فى نشر العلم اقتداء بالإمام مالك، واعجاب الناس عامة وخاصة سلوكهم ونهجهم فى الحياة هو الذى مكن لهذا المذهب فى ربوع الأندلس وذلك نتيجة لِتَبَنّى المذهب وأصوله وفروعه فى الفتيا والقضاء والتعليم وسير الخلف على نهج السلف فى هذا المضمار، ومتابعة العامة للخاصة أيضا.

ومهما تكن الأسباب فقد ساد المذهب المالكى ربوع الأندلس، وارتضاه الأندلسيون لأنفسهم دون ما سواه، وكان فى تبنيهم لهذا المذهب الفقهى واجماعهم على الأخذ به عصمة لهم من التفرق والانقسام والعداوة والبغضاء التى شَاعَتْ بين أهل المذاهب الأخرى فى بلدان المشرق الإسلامى، مما حفظ على الأندلس وحدتها المذهبية والفكرية. وهى أحوج ما تكون إليه فى مواجهة القوى الصّليبية المتربصة بها، والمعادية لها، وهذا أمر له أهميته وقيمته.

ولكن ليس معنى ما ذكرت من سيادة مذهب مالك وانتشاره بالأندلس أنّ الأندلس انغلقت على نفسها، أو أنها لم تعرف سوى هذا المذهب، والحقيقة هى أنّ الأندلس قد عرفت المذهب الشافعى، ومذهب داود الظاهرى، وبعضا من مذاهب العراقيين. ومذهب الأشاعرة.

---

(٢٩) القاضى عياض ـ ترتيب المدارك ـ جـ ٢ ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨

(٣٠) ابن الفرضى ـ تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ـ رقم الترجمة (٨١٥)

مذهب الإمام الشافعي :

أما مذهب الإمام الشافعي، فَيُعْزى ادخاله الى بقى بن مخلد الذى ملأ الأندلس حديثا ورواية. وعلى يديه هو وابن وضاح صارت الأندلس دار حديث واسناد، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه وكان مما انفرد به بقى بن مخلد ولم يدخله سواه: مصنف أبى بكر بن أبى شيبه رحمه الله بتمامه. وكتاب الفقه لمحمد بن ادريس الشافعى الكبير بكماله.

وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط، وكتابه فى الطبقات، وكتاب سيرة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله[٣١]. والمعنى أنّ بقى بن مخلد هو أول من أدخل كتاب الأم للإمام الشافعى وإلا فهناك علماء بعد بقى قد أدخلوا الكتاب بكماله، أعنى قاسم بن محمد بن قاسم[٣٢].

وجاء فى ترجمة يحيى بن عبدالعزيز بن الجزار أبى زكريا القرطبى أنه رحل الى المشرق وسمع بمصر من المزنى والربيع بن سليمان المؤذن، ومحمد بن عبدالله بن الحكم ويونس بن عبدالأعلى، ومحمد بن عبدالله بن ميمون وعبدالغنى بن أبى عقيل وغيرهم. وسمع الناس من يحيى المذكور مختصر المزنى ورسالة الشافعى وغير ذلك من علم محمد بن عبدالله بن الحكم، وكان يميل الى فقه الشافعى، وكان مشاورا مع عبيدالله بن يحيى واضرابه (ت ٢٩٥ هـ)[٣٣].

وروى محمد بن يحيى عن والده يحيى بن عبدالعزيز كتاب الرسالة للشافعى عن محمد بن يحيى عن أسلم بن عبدالعزيز عن الربيع بن سليمان عن أبى عبدالله محمد بن ادريس الشافعى، وقد روى عنه أبو اسحاق ابراهيم بن شاكر وأبوالوليد بان الفرضى، حدث بذلك ابن عبدالبر عن ابراهيم بن شاكر[٣٤].

هذا ولدينا اشارة أيضا الى ادخال كتاب محنة الشافعى الى الأندلس برواية أبى بكر بن العربى[٣٥]. أى أن فقه الشافعى المتمثل فى كتاب الأم والرسالة، وكتاب محنته، كان كل ذلك متداولا ومرويا بالأندلس.

(٣١) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ أـ ١ ص ٩٢
(٣٢) انظر: تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (١٠٤٩)
(٣٣) النفح ـ جـ ٣ ص ٣٨٢
(٣٤) جذوة المقتبس للحميدى ـ ترجمة رقم (١٦٦) ص ٩٩
(٣٥) فهرسة ابن خير ـ ص ٣٠١

وكان بقى بن مخلد قمينا أن يوجد تربة صالحة للمذهب الشافعى بالأندلس أو أن يكون له مدرسة كما كان الشأن بالنسبة ليحيى بن يحيى َالليثى، لكن الناس كانوا قد الفوا ما وجدوا أنفسهم عليه.

وليس معنى هذا أنه لم يكن لبقى تلامذة يأخذون عنه. والحقيقة أنه كان له تلامذة يقتدون برأيه فى الحجة والنظر والميل الى المذهب الشافعى ولكنهم قلة بالنسبة للمالكية. فمثلا عثمان بن وكيل من أهل المدور الأقصى من أهل قرطبة، فانه سمع من بقىّ بن مخلد، وكان من ثقات أصحابه. وكان الغالب عليه النظر فى علم الشافعى وكان حافظا له(٣٦).

وصنوه : حسن بن سعد بن ادريس الكتامى من أهل قرطبة، فقد سمع من بقىّ ابن مخلد كثيرا. وكان عنده مسند أبى عبدالرحمن بن بَقِّى. وكان يذهب الى النظر وترك التقليد ويميل إلى قول محمد بن ادريس الشافعى. وكان يحضر الشورى، ولما رأى الفتيا دائرة على مذهب المالكيين، ترك شهودها ولزم بيته، وسمع الناس منه كثيرا(٣٧).

ومن أصحاب بقى بن مخلد هارون بن مضر من أهل قرطبة، فانه صحب بقىّ بن مخلد، وكان قد مال الى كتب الشافعى، فعنى بها وحفظها وتفقه فيها، وكان من أهل النظر والحجة(٣٨).

وعثمان بن سعيد الكنانى من أهل جيان ويعرف بحرقوص فانه سمع من بقىّ بن مخلد. وكان من رؤساء أصحابه، وجامعا للكتب معتنيا بالعلم، مناظرا على مذهب الشافعى وغيره. وألف كتابا فى شعراء الأندلس، وكان متفننا فى الأدب والرواية (ت ٣٢٠ هـ)(٣٩).

وهناك قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار الذى ينعته ابن الفرضى بأنّه لم يكن بالأندلس مثله ممن رحل الى الأندلس، كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد. ويميل الى مذهب الشافعى. كما كان يوصى ولده بالأخذ برأى الشافعى قائلا: «أوصيك بكتاب الله فلا تنس حظك منه، واقرأ كل يوم جزءا، واجعل ذلك عليك واجبا. وان أردت أن تأخذ من هذا

(٣٦) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (٨٩٦)
(٣٧) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (٣٤١)، وحياته ٢٤٨ ـ ٣٠٢
(٣٨) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (١٥٣١)
(٣٩) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (٨٩٢) جـ ١ ص ٣٠٣

الأمر يعنى الفقه فعليك برأى الشافعى فانى رأيته أقل خطأ». وقد توفى حوالى سنة ٢٧٧ هـ وقيل سنة ٢٧٨ هـ(٤٠).

وهناك أيضا أحمد بن عبدالوهاب بن يونس المعروف بابن صلىّ الله من أهل قرطبة كان يميل الى مذهب الشافعى، وله سماع من شيوخ وقته، وصحب عبيدا الشافعى وتفقه معه وناظر عليه. وكان رجلا حافظا للفقه عالما بالاختلاف ، ذكيا، بصيرا بالحجاج، حسن النظر قائما بما يتقلد الكلام فيه، وكان له حظ وافر من العربية واللغة، وسار فى جملة المقابلين للمستنصر بالله، وقرأ كتب الفتوح. وكان ينسب إلى مذهب الاعتزال (توفى سنة ٣٩٩ هـ)(٤١).

وممن كان على شاكلة هؤلاء العلماء ممن يميلون الى مذهب الشافعى أو يفتون به أحمد بن بشير بن محمد التجيبى المعروف بابن الأغبس من أهل قرطبة، وكان مشاورا فى الأحكام ويذهب فى فتياه الى مذهب الشافعى ويميل الى النظر والحجة، وكان متقدما فى معرفة لسان العرب، والبصر بلغاتها، متفردا فى ذلك (ت ٣٢٧ هـ)(٤٢).

وفى الديباج المذهب ص ١٥٧ أنّه ربما أفتى بمذهب مالك، وكان إذا استفتى ربما يقول: أما مذهب أهل بلدنا فكذا، وأما الذى أراه فكذا (ت سنة ٣٢٨ هـ) وقيل سنة ٣٢٧ هـ وقيل ٣٢٦ هـ .

وجاء فى ترجمته أيضا أنه كان فقيها على مذهب الشافعى مائلا الى الحديث، وكان لحق بأهل الشورى، كما كان يتفقّه فى مجلسه للشافعى، فاذا شهد مجلس الشورى قال بقول أصحابه، ومعنى هذا أنّه كان يدرس فقه الشافعى لطلاب العلم، وبعبارة أوضح أنه كان هناك من يطلب فقه الشافعى ويتفقه به، كذلك فان وصول ابن بشير الى رتبة الشورى، والفتيا يدل على افساح المجال لهذا المذهب وعدم مطاردة أتباعه، وان كان العرف قد جرى على الافتاء

---

(٤٠) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ رقم الترجمة (١٠٤٩)

(٤١) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (١٥٣) . ص ٤٧

(٤٢) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (١٠٢) وانظر بغية الملتمس.

وانظر الديباج المذهب ص ١٥٧، وله ترجمة بجذوة المقتبس ص ١١٩، وذكر انه توفى سنة ٣٢٧ هـ ولم يشر الى مذهبه.

وانظر: شجرة النور الزكية ـ جـ ١ ص ٨٦ . وانظر: معجم الأدباء لياقوت الحموى. فى ترجمته رقم ٣٢ جـ ٢ ص ٢٣٥

بمذهب مالك رضى الله عنه احتراما لرأى الأغلبية من الفقهاء وعامة الناس.

ومن هؤلاء العلماء أيضا عبدالسلام بن السمح بن نابل ... الهوارى، فانه كان قد ارتحل الى المشرق وتردد هناك مدة طويلة وسكن اليمن، وتفقه بمصر للشافعى، وقرأ القرآن، وقدم الأندلس وكان حافظا لمذهب الشافعى حسن القيام به، وكان ساكنا بالمدينة الزهراء الى أن توفى سنة ٣١٧ هـ[٤٣].

وهناك عالم آخر سمع من أبى محمد الفرغانى وكتب بخطه كتاب الشافعى الكبير عشرين جزءا ومائة جزء، كما سمعه من أبى الحسن عن محمد بن رمضان المعروف بابن الزيات عن الربيع بن سليمان عن الشافعى، وصارت نسخته الى الحكم المستنصر بالله، وهذا العالم هو يوسف بن محمد بن سليمان الهمدانى من أهل شذونة. ولما انصرف الى الأندلس قدمه أمير المؤمنين رحمه الله الى الصلاة كما قدم أخاه الى الصلاة بشريش. (توفى سنة ٣٨٣ هـ)[٤٤].

كما دخل المذهب الشافعى مع علماء من أهل المشرق كانوا قد ارتحلوا الى الأندلس ونالوا حظوة من امرائها.

ومن هؤلاء العلماء أبو الحسن على بن محمد الأنطاكى شيخ ابن الفرضى الذى ينعته بأنّه كان عالما بالقراءات القرآنية، رأسا فيها، وفى علم الحديث، فضلا عن بصره بالعربية والحساب والفقه على المذهب الشافعى. وكان دخوله الأندلس فى سنة ٣٥٢ هـ فنزل من الحكم المستنصر بالله ومن الناس منزلة رفيعة. (توفى سنة ٣٧٧ هـ)[٤٥].

ومن هؤلاء القادمين أيضا محمد بن أحمد بن ابراهيم بن أبى بردة الشافعى البغدادى أبو الطيب الذى وصل الى الأندلس سنة ٣٦١ هـ فأكرمه أمير المؤمنين المستنصر وأمر باجراء النزل عليه.

وكان كما ينعته ابن الفرضى من أعلم الناس بمذهب الشافعى وأحسنهم قياما به، لم يصل

---

(٤٣) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (٨٥٧) جـ ١ ص ٢٨٧، ٢٨٨

(٤٤) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (١٦٣٦)

(٤٥) ابن حيان ـ المقتبس، تحقيق د. مكى ص ١٠

الى الأندلس أفهم منه بالمذهب، ويقال انه كان ينسب الى الاعتزال ورفع ذلك الى السلطان فأمر باخراجه(٤٦).

ومن هؤلاء العلماء عبيدالله بن عمر بن أحمد .... القيسى الشافعى من أهل بغداد قدم الأندلس فى المحرم سنة ٣٤٧ هـ . وكان قد تفقه ببغداد على مذهب الشافعى وتحقق فيه. وكان فقيها على مذهب الشافعى، إماما فيه، بصيرا به عالما بالأصول والفتوى حسن النظر والقياس، وكان مع ذلك إماما فى القراءات، ضابطا للحروف، كثير الرواية والحديث. (توفى سنة ٣٦٠ هـ)(٤٧).

وهناك اشارة الى رواية كتاب السنن للشافعى، فقد ذكر ابن فرحون فى ترجمته لأحمد ابن عبدالله بن محمد بن على اللخمى الاشبيلى جـ ١ ص ٢٣٤ـ ٢٣٥ أن ابن عبدالبر قرأ عليه كتاب السنن للشافعى ص ٢٣٥.

وكان أحمد المذكور قد استقضى ببلده وتوفى سنة ٣٩٦ هـ ، ومعنى هذا أن مؤلفات الشافعى كانت تروى بالأندلس وتؤخذ عن كبار العلماء والقضاة والفقهاء، أى أنها لم تكن محاربة مثل كتب ابن حزم.

والقاء نظرة دقيقة على ما ذكرنا نضع أيدينا على النقاط الآتية: ـ

أ ـ أن المذهب الشافعى دخل الى الأندلس بعد أن استحكم المذهب المالكى بها وأصبحت له قواعده الراسخة فى التدريس والقضاء والفتيا. كما أصبح له جمهوره الكبير، وبعد أن تأصلت أصول المذهب ونمت جذوره بالتربة الأندلسية وألفت فيه المؤلفات الكثيرة، وبعد أن دان له النّاس الى حدّ كبير. مما يعنى أنّ الفرصة لم تكن مواتية لانتشار المذهب الشافعى الذى كان يدعو الى حرية الرأى والفكر والاجتهاد وعدم التقليد.

ب ـ أن المذهب انما دخل الى الأندلس عن أحد طريقين: طريق العلماء المرتحلين من الأندلس الى المشرق وإما المرتحلين من المشرق الى الأندلس، وجمهرتهم كانت إما من أهل بغداد أو الشام. وحيث كانت العراق مؤتلا للاعتزال، فان شُبُهَة الاعتزال كانت

(٤٦) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (١٤٠٣)

(٤٧) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (٧٧١)

تلاحق أولئك العلماء. وقد يكون ذلك صحيحا وقد لا يكون صحيحا، وقد يكون معاداة المالكية للمذهب الشافعى سببا فى حصر النفوذ للمذهب الشافعى، كما قد يكون التقليد الذى سار عليه المالكية بالأندلس سببا فى ذلك أيضا.

جـ ـ كما نلاحظ أنّ دخول المذهب وكتبه الى الأندلس ابتدأ مع دخول بقى ابن مخلد وذلك على عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن أى فى القرن الهجرى الثالث وأن التوسع فى دخول المذهب الشافعى الى الأندلس انما تم فى القرن الرابع الهجرى أى على عهد الخليفة الناصر لدين الله وقيام الحكم المستنصر بشئون العلم والثقافة ومعروف أن الحكم المستنصر كان حاكما مستنيرا يؤمن بحرية الفكر، ويدعو الى التدقيق فى الأخذ والعطاء، ولم يركن الى التقليد أو الجمود. وفى عهده كثر قدوم العلماء الى الأندلس ويكفى أن نشير الى ابى على القالى.

د ـ والأمر الآخر هو أن العلماء الداخلين أو العائدين الى الأندلس كانوا من ذوى الثقافات المتنوعة، أى موسوعى الثقافة، فقد كانوا حجة فى القراءات والحديث، وعلوم العربية والحساب فضلا عن الفقه وأصوله. وهذه المواصفات كانت تجد قبولا لدى الحكم المستنصر بالله.

هـ ـ وملاحظة أخيرة هى أن أحدا من الذين نقلوا المذهب الشافعى الى الأندلس لم يرو مباشرة عن الإمام الشافعى، وإنما رووا عن تلامذة الشافعى بمصر، وأن مذهب الشافعى لم يكن مستنكرا بين العلماء لا روايته ولا التفقه به، كما كان الشأن بالنسبة لتلامذة الأوزاعى ومالك رضى الله عنهم.

مذهب داود الظاهرى :

وعرفت الأندلس مذاهب فقهية أخرى منها مذهب داود بن سليمان الظاهرى، وان لم يكن لها مكان الصدارة فى الحياة الاجتماعية والثقافية لأسباب كثيرة منها ما يتصل بطبيعة المذهب وتاريخ نشأته، إذ جاء هذا المذهب بعد أن مكن للمذاهب الإسلامية السنية فى نفوس الناس، واعتمدها الحكام فى القضاء والفتيا، ومنها الغاء مبدأ القياس الفقهى وهو أصل من أصول التشريع عند جمهور الفقهاء، ومنها بعد الأندلس عن موطن المذهب الأصلى وعدم قيام دعاة

له، ومنها دخوله الى الأندلس فى فترة متأخرة نسبيا عن المذاهب الأخرى، وذلك بعد أن مكن الفقهاء للمذهب المالكى بالأندلس منذ امارة عبدالرحمن بن الحكم بن هشام.

وأول من أدخل مذهب داود الظاهرى الى الأندلس فيما نعلم أبو محمد عبدالله بن محمد بن قاسم بن هلال من أهل قرطبة. فانه كان قد رحل الى العراق، ولقى أبا سليمان داود بن سليمان القياسى فكتب عنه كتبه كلها وأدخلها الأندلس، فأخلت به عند أهل وقته.

وكان علم داود الأغلب عليه، مع أنه نظر فى علم مالك نظرا حسنا غير أنّه كان يميل الى علم داود والحجة.

وكان نبيلا : حدث عنه محمد بن عبدالملك بن أيمن، وقاسم بن أصبغ ومحمد بن قاسم وغيرهم. (توفى سنة ٢٧٢ هـ)(٤٨).

ومنذ ذلك الوقت بدأ مذهب داود الظاهرى يجد سبيله الى الأندلس، وإن كان ذلك ببطئ شديد. ومن المظنون أنّ تلامذة عبدالله بن محمد بن قاسم قد تأثروا بشيخهم واستاذهم الى حدّ ما.

وبعد وفاة عبدالله بن محمد لا نكاد نعثر على اشارة الى مذهب الظاهرية بالأندلس حتى مجئ منذر بن سعيد، وإن صح أنّه لم يكن هناك فقهاء ظاهريون، فهذا يعنى عزوف أهل الأندلس عن هذا المذهب بالكلية ومحاربتهم له بالاجماع، وقد يكون هناك فقهاء يلمون به ولكنهم يسرونه فى أنفسهم خوفا من العامة.

ومهما يكن الأمر، فان المصادر الأندلسية تحدثنا أن القاضى أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة، كان داودى المذهب، قويا على الانتصار له(٤٩).

وقد أشار الى ذلك الحميدى نقلا عن شيخه ابن حزم أن منذر بن سعيد كان مائلا الى القول بالظاهر قويا على الانتصار له(٥٠) وقريب من ذلك ما نجده عند ابن الفرضى فقد ذكر

(٤٨) ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (٦٥٥) ص ٢١٩

(٤٩) المقرى ـ نفح الطيب جـ ٣ ص ١٦٩

(٥٠) الحميدى ـ جذوة المقتبس ـ ترجمة رقم (٨١١)

أن مذهبه فى الفقه كان مذهب النظار والاحتجاج، وترك التقليد، وكان يميل الى رأى داود ابن على خلف ويحتج له[٥١].

ومعروف أن منذر بن سعيد قد توفى سنة ٣٥٥ هـ ، أى أنه هناك ٨٣ سنة بين وفاة عبدالله بن محمد بن قاسم ومنذر بن سعيد، وهى فترة طويلة.

ونحن لا ندرى إن كان منذر حقا يتمذهب بمذهب داود أم أنه كان يجنح الى الاجتهاد وعدم التقليد وقد كان فى طاقته ذلك؟.

ولا ندرى أيضا إن كان مذهب داود تسرب الى منذر بن سعيد عن طريق شيوخه بالأندلس أم عن طريق قراءاته واطلاعاته الخاصة؟ أم أنّه استقاه فى رحلته الى المشرق كما فعل عبدالله بن محمد بن قاسم من قبل؟ وقد يكون لكل هذه العوامل أثر فى ذلك. فعلى عهد الخليفة الناصر لدين الله والحكم المستنصر بالله انفتحت الأندلس على العالم الخارجى، وعمرت مكتبة القصر بمختلف الفنون والآداب والعلوم، وقد رأينا دعوة ابن لبابة الى الأخذ بمذهب أهل العراق فى الأحباس أو الأوقاف، وقد أفتى بذلك فعلا وأخذ الفقهاء والقضاة بفتياه أو فتواه، وكأن الأندلس قد أصبحت تضيق ذرعا بالوقوف عند مذهب واحد لا تتعداه الى سواه.

وبعد منذر بن سعيد لا نكاد نعثر على اشارة واضحة وصريحة تشير الى مذهب داود الظاهرى حتى مجيء أبى الخيار مسعود بن سليمان وهو شيخ ابن حزم. والمظنون أنّه هو الذى وجه ابن حزم هذه الوجهة الظاهرية، إذ يذكر الضبى أنّ مسعود بن سليمان فقيه زاهد يميل الى الاختيار، والقول بالظاهر، حسبما ذكر أبو محمد بن حزم إذا كان أحد شيوخه. وأبوالخيار هذا قد توفى سنة ٤٢٠ هـ[٥٢]، أى أنّ بين وفاته ووفاة منذر بن سعيد ٦٥ سنة وهى مدة ليست بالقصيرة أيضا، مما يشير الى تعثر المذهب الظاهرى فى طريقه نحو اعتناق النّاس له.

(٥١) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ترجمة رقم (١٦٥٤)

(٥٢) ابن بشكوال - الصلة - ترجمة رقم (١٣٥٢) ، وبغية الملتمس للضبى ترجمة رقم (١٣٦١)، وجذوة المقتبس للحميدى رقم (٨١٤)

وانظر: د. عبدالكريم خليفة - فى كتابه ابن حزم الأندلسّى - حياته وأدبه ص ٩٨

وانظر : سعيد الأفغانى - رسالة ابن حزم فى المفاضلة بين الصحابة ص ٣٥

وانظر : فى ابن حزم ومراجع ومصادر عنه دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص ٢٥٤ - ص ٢٦٤

ومن غير شك فان ابن حزم أبا محمد على بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ هـ ـ ٤٥٦ هـ) يعد رأس الظاهرية بالأندلس.

وبحكم المنشأ والبيئة فان ابن حزم نشأ مالكى المذهب، ودرس الفقه المالكى وقرأ الموطأ وان كان ذلك بعد بلوغه السادسة والعشرين وذلك حسبما يرويه أبوبكر بن العربى، أى فى حوالى سنة ٤٠٩ هـ .

غير أنّ ابن حزم ترك القول بمذهب مالك وتحول الى مذهب الشافعى فدرسه وأخذ به وتعصب له، ولكنه تركه وشدّ الرحال الى مذهب داود بن خلف الأصبهانى الظاهرى (٢٠٢ ـ ٢٧٠ هـ)[٥٣].

وقد عمل ابن حزم على تنقيح مذهب داود الظاهرى، وجاهد فى سبيله جهادا عنيفا، ودافع عنه دفاعا قويا، وجادل عنه بكل ما وسعه الجهد والطاقة ووضع الكتب فى بسطه وتفسيره.

وبهذا يعد ابن حزم أحد أركان مذهب الظاهرية فى الأندلس وغير الأندلس. ومن هذه المؤلفات: كشف الالتباس ما بين الظاهرية وأصحاب القياس، وذلك حسبما يذكره ابن بسّام فى الذخيرة[٥٤]. وحسبما يذكره المقرى فى كتابه نفح الطيب.

وباعتناق ابن حزم لهذا المذهب فتحت له آفاق واسعة وجديدة لما عرف به ابن حزم من قوة الحجة، ودقة فى المنطق، وصلابة الشَّكيمة[٥٥].

واحتدم الصرّاع بين ابن حزم وحماة المالكية بالأندلس من أمثال أبى الوليد سليمان الباجى، وأبى بكر بن العربى.

ومحاورة أبى الوليد الباجى لابن حزم مشهورة فى كتب المالكية، وكان ذلك سببا فى إحراق كتب ابن حزم ومطاردته فضلا عن هجوم ابن حزم على ملوك الطوائف ورميهم بالكفر والخروج

(٥٣) انظر : الذخيرة لابن بسّام ـ القسم الأول ـ المجلد الأول ص ١٦٧ ـ ١٦٩
وانظر: مقدمة جمهرة انساب العرب لابن حزم بقلم عبدالسلام محمد هارون ص ٦
(٥٤) الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول : المجلد الأول ص ١٧١
(٥٥) انظر : بغية الوعاة للسيوطى ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ـ ومقدمة جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٦

عن الدين، ومن هنا تقرب ملوك الطوائف الى فقهاء المالكية وعوام الناس بمطاردة ابن حزم واضطهاده.

ومعارضة ابن العربى له مشهورة ، أو قل الصراع المذهبى بين ابن حزم وابن العربى، وقد تعرض له فى كتابه العواصم من القواصم، مما حدا بأحد أبناء ابن حزم بالردّ على ابن العربى فى كتابه الدواهى والنواصي، وذلك فى كتاب سماه «الزوائغ والدوامغ» وقد أشار الى ذلك السيوطى وغيره(٥٦).

وكأن القدر قد وضع ابن حزم بموضع المخالف المجاهد، فاتباعه مذهب الشاعفى لأول أمره جرّ عليه عداوة الفقهاء وتشنيعهم عليه، والقول بالظاهر بعد ذلك ألّب عليه وعلى نحلته أقوما لا قبل له بهم، ومع هذا فانه استصغر الأدى فى سبيل ما يرى أنّه الحق فشأنه فى ذلك شأن كل أصحاب العقائد والمذاهب، وصد خصومه، وكافحهم، ولم يلق السلاح من يده حتى فارق الحياة، بعد أن ملأ المغرب بدعوته، وهو فرد كما أعترف خصمه العتيد أبوبكر بن العربى رحمهما الله تعالى(٥٧).

وقد جاء ذلك فى كتاب النفح حيث قال: وابن حزم هو أبو محمد بن حزم الظاهرى قال ابن حيّان وغيره:

«كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل، وله كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة لم يخل فيها من غلط ، وكان شافعى المذهب، يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صارا ظاهريا فوضع الكتب فى هذا المذهب، وثبت عليه إلى أن مات، وكان له تعلق بالأدب، وشنع عليه الفقهاء، وطعنوا فيه، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه، وتوفى بالبادية سنة ٤٥٦ هـ»(٥٨).

ومن خير ما يصور جهاد ابن حزم فى سبيل دعوته ومذهبه ما يرويه ابن حيّان: .. ومال به أوّلاً النظر فى الفقه إلى رأى أبى عبدالله محمد بن ادريس الشافعى وناضل عن مذهبه،

---

(٥٦) انظر : بغية الوعاة للسيوطى ص ١٥٨ ـ ١٥٩ . ومقدمة جمهرة أنساب العرب ص ٦
وانظر : فى احراق كتبه، النفح جـ ٢ ص ٢٨٧ وله شعر فى ذلك، والذخيرة لابن بسام ـ القسم الأول ـ المجلد الأول ص ١٧١

(٥٧) سعيد الأفغانى ـ رسالة المفاضلة بين الصحابة ص ٦٧

(٥٨) نفح الطيب ـ جـ ٢ ص ٢٨٣ . وانظر الذخيرة لابن بسام ـ القسم الأول ـ المجلد الأول ـ ص ١٦٧ ـ ١٦٨، والمقرى ينقل عنه والقول لابن حيان.

وانحرف عن مذهب غيره حتى وسم به، ونسب إليه فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ، ثم عدل إلى الظاهر ـ ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض، ولا يرقه بتدريج، بل يصك به معارضه صكّ الجندل، وينشقه الخردل، فينفر عنه القلوب، ويقع به لندوب، حتى استهدف الى فقهاء وقته، فتمالؤا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو منه فطفق الملوك ينصونه أى يبعدونه ويسيرّونه عن بلادهم الى أن انتهوا به منقطع أثره، وهى بلدة من بادية لبله. وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع، يبث علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، فيسمعهم ويفقههم ويدارسهم، كمل من مصنفاته وقر بعير. لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها باشبيلية ومزقت علانية»[٥٩].

ويروى أنّه وجد مرّة من حاكم ميورقة العباس بن أحمد بن رشيق بعض التأييد، فدعاه الى جزيرته، فلبى ابن حزم الدعوة، ودخلها بعد سنة ٤٣٠ هـ فأخذ فى نشر مذهبه فى كنفه، وكانت الفتيا فيها من قبل على مذهب مالك، فانتشر مذهبه وفشا فى الجزيرة بين الناس. الى أن كانت تقوم المناظرة بينه وبين خصومه فى المالكية فى مجلس ذلك الحاكم نفسه، وظل الأمر على هذه الحال حتى رجع أبو الوليد سليمان الباجى من المشرق، وناظره فأفحمه مما اضطره الى الخروج من تلك الجزيرة التى كانت قد قدمت له الحماية والأمن من قبل.

وذكر ابن فرحون فى الديباج أن للباجى مع ابن حزم مجالس كثيرة قيدت بأيدى الناس[٦٠]. وقد نص على ذلك المقرى قائلا: ولما قدم أبوالوليد الباجى الأندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة، إلا أنه كان خارجا عن المذهب ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه، فقصرت السنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل، وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها، واتبعه أهلها، فلما قدم أبوالوليد كلموه فى ذلك، فدخل اليه وناظره، وشهر باطله، وله معه مجالس كثيرة[٦١].

هذا وقد لخص ابن حزم المذهب الظاهرى بأمرين: أحدهما نفى القياس أى القياس الفقهى فى الأحكام الشرعية، وثانيهما: الأخذ بظاهر النصوص.

(٥٩) انظر الذخيرة لابن بسام ـ القسم الأول ـ المجلد الأول ـ ص ١٦٧ ـ ١٦٩. وانظر: سعيد الأفغانى ـ رسالة فى المفاضلة بين الصحابة ص ٦٨

(٦٠) الديباج المذهب ـ لابن فرحون ـ جـ ١ ص ٣٨٠

(٦١) نفح الطيب ـ جـ ٢ ص ٢٧٣ . وانظر: سعيد الأفغانى فى رسالة ابن حزم فى المفاضلة بين الصحابة ص ٦٩

وقد بسط ابن حزم رأيه فى رسالته المسماة بـ : ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد، وقد طبع هذه الرسالة سعيد الأفغانى ونشرتها دار الفكر ببيروت.

هذا وقد طبق ابن حزم أصول الظاهرية على العقائد، ويبدوذلك جليا فى كتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل، والكتاب مطبوع ومتداول، ويبدو ذلك أيضا واضحا فى كتابه الموسوم بـ : الأحكام فى أصول الأحكام، وهو من أجلّ كتبه وأعمقها، وكذلك فى كتابه المحلى، وهو كتاب قيم وعظيم الفائدة لأنه اعتمد فيه على الأحاديث الصحيحة، وناقش أدلة غيره وردّ كثيرا منها إما تضعيفا لأسانيدها وإما لمخالفتها أصول مذاهب خصومه وعدم التزامهم بها فى كل الأحوال.

فظاهرية ابن حزم وكما يقول د. عبدالكريم خليفة أعمق من أن تنحصر فى دائرة الفتيا والتشريع وأصول الفقه، والفقه، فقد لونت آراءه فى العقائد والمذاهب وصبغتها بصبغتها الخاصة[٦٢].

وبظهور ابن حزم تكثر الاشارات الى وجود علماء كانوا يميلون الى الأخذ بمذهب داود الظاهرى، وكأن ابن حزم قد مهد لهم الطريق الوعر، أو كأنه قد كسر حدة الخصوم وكسر شوكة المعارضة فشجع العلماء والفقهاء على الأخذ بهذا المذهب.

وهناك اشارة الى أبناء ابن حزم نفسه، وهم: أبو رافع الفضل بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٧٩ هـ ، فانه كان فقيها ظاهريا وفيه يقول جهور بن يحيى التجيبى[٦٣]:

رأيت ابن حزم ولم ألقه .. فلما التقيت به لم أره
لأن سنا وجهه مانع .. عيون البرية أن تبصره

وكان الفضل عالما مصنفا، ومن أولاده أبو أسامة يعقوب وهو كاتب مشهور، (توفى سنة ٥٠٣ هـ)[٦٤].

---

(٦٢) د. عبدالكريم خليفة ـ ابن حزم الأندلسى ـ حياته وأدبه ص ١١٤ ـ ١١٥ (بتصرف)

(٦٣) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ القسم الثانى ـ ترجمة رقم (١٠٥٩) ص ٥٤٠، وانظر فى ترجمته أى ترجمة الفضل: الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم (٩٩٤)

(٦٤) انظر : الصلة لابن بشكوال ـ ترجمة رقم (١٥٢٢)

وولده الثالث مصعب وله ترجمة فى التكملة لابن الأبار، وليست لدى الآن ولذا لم أعرف عنه شيئا يذكر[٦٥].

ولاشك فى أنّ لابنائه الأثر الكبير فى حمل مذهب والدهم والذّب عنه والدعوة إليه.

ومن فقهاء الظاهريين بالأندلس أيضا : سالم بن أحمد بن فتح أبو النجاة. سمع الحديث وأكثر كتبه عن شيوخ بلده ثم مال الى الظاهرية، بصداقة متشبعهم فى الأندلس أبى محمد على بن أحمد بن حزم وتوفى سالم هذا سنة ٤٦١ هـ[٦٦]

وواضح أن المراكشى متحامل على ابن حزم إذ المتشبع هو المتزين بالباطل، ولم يكن ابن حزم كذلك.

غير أن المهم فى الأمر أنّ اسلم بن أحمد وهو من أهل قرطبة كان صديقا لابن حزم، وقد يكون أخذ هذا المذهب عنه.

ويروى أيضا أنّ سعد السعود بن أحمد بن عفير الأموى المتوفى سنة ٥١٣ هـ كان ظاهريا مصمما على القول به، ويوصف بأنه كان محدثا حافظا سنيا فاضلا مثابرا على اقتفاء الأثار النبوية، لينا متواضعا، ولكنه كان صليبا فى الحق لا تأخذه فى الله لومة لائم، سليم الباطن، صحيح المداخلة، ملازما للامامة والأذان بمسجده، وكان عالى الصوت فاذا أذن سمع من نحو أربعة أميال، نفعه الله، وجمع فى السنن كتابا حفيلا سماه السبيل[٦٧].

ومن علماء الظاهرية بالأندلس أيضا : محمد بن الحسين بن أحمد بن بشر الأنصارى الخزرجى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ وكان محدثا، واسع الرواية، عارفا بالحديث وعلله وأسماء رجاله، مشهورا بالاتقان والضبط ، ثقة فى ما نقل، وكان ذكيا فاضلا خيرا متقللا من الدنيا، ظاهرىّ المذهب داوديه، يغلب عليه الزهد والصلاح[٦٨].

وكذلك كان أحمد بن أبى مروان الأنصارى فقيها ظاهرى المذهب حزميه، زاهدا ورعا،

(٦٥) انظر : دائرة المعارف الإسلامية - وهى تحيل على التكملة رقم (١٠٩٧)
(٦٦) الذيل والتكملة - السفر الرابع - ترجمة رقم (٣) ص ٢. ص ١ والمتشبع المتزين بالباطل.
(٦٧) الذيل والتكملة - السفر الرابع - ترجمة رقم (٤٤) ص ١٩
(٦٨) الذيل والتكملة - السفر السادس - ترجمة رقم (٤٥٢) ص ١٧٠

ألف فى السنن كتابه الكبير المسمى «بالمنتخب المنتقى» جمع فيه مفترق الصحيح فى الحديث الواقع فى المصنفات وتوفى سنة ٥٤٩ هـ(٦٩).

ومن هؤلاء العلماء أيضا: أحمد بن محمد بن عمر اللخمى أبو جعفر العشاب من أهل مالقه، وينعت بالعشاب والنبات لاشتغاله بالنبات وتبريزه فى المعرفة به.

ويقال أنّه كان شيخا فاضلا سنيا ظاهرى المذهب مقتصدا فى أحواله، دينا مؤثرا حسن المشاركة فى حوائج الناس، مبادرا الى قضائها... الخ (توفى سنة ٥٦٢ هـ)(٧٠).

وكان أيضا محمد بن الحسن بن على بن صالح الهمذانى من أهل مالقة فقيها ظاهرى المذهب. وصنف فيه، وكان حافظا عاقدا للشروط متقدما فيها مبرزا فى العدالة... الخ (توفى سنة ٦٠٤ هـ)(٧١).

وكان كذلك عبدالله بن سليمان بن داود... بن حوط الله الأنصارى يميل الى الاجتهاد فى نظره، ويغلب طريقة الظاهرية. وقد ولى قضاء اشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلاوميورقة، وكان من العلماء العاملين سنيا مجانبا لأهل البدع والأهواء... الخ (توفى سنة ٦١٢ هـ)(٧٢).

ومن فقهاء الظاهرية، وعلمائها وقضاتها بالأندلس على بن محمد بن عبدالله بن يوسف بن خطاب المعافرى، كان فقيها ظاهرى المذهب محدثا راوية، عاقدا للشروط مبرزا فى تجويدها، استقضى باشبيلية وقتا واستنابه القضاة بها كثيرا فى الأحكام (توفى ٦٢٩ هـ)(٧٣).

وهذه ظاهرة جديدة وهى تولى بعض فقهاء الظاهرية القضاء بالأندلس، وهذه الظاهرة لها مغزاها، إذ أصبح الجو مهيئا وملائما لقبول الظاهرية فى الحياة القضائية، وهذا يدل على كسر حِدّة طوق المالكية، ولكن ليس بين أيدينا ما يفيد إن كان يقضى وفق المذهب المالكى أم

(٦٩) الذيل والتكملة ـ السفر الأول ـ القسم الأول ـ ترجمة رقم (٣٤٦) ص ٢٢٦

(٧٠) الذيل والتكملة ـ السفر الأول ـ القسم الثانى ـ ترجمة رقم (٧١٧) ص ٤٧٥، ٤٧٦، وله ترجمة فى برنامج شيوخ الرعينى رقم ١٤٢

(٧١) الذيل والتكملة ـ السفر السادس ـ ترجمة رقم (٤٣٣) ص ١٦١

(٧٢) ابن فرحون ـ الديباج المذهب ص ٤٧٧

(٧٣) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ ترجمة رقم (٤٨١) ص ٢٣٨

الظاهرى، فان كان يقضى بظاهر النصوص فمعناه أن بيئة الأندلس أصبحت تتقبل هذا المذهب أو على الأقل لا تعاديه.

وقد يكون لاعتناق دولة الموحدين لهذا المذهب أثر فى ذلك.

ومن هؤلاء العلماء الذين تمذهبوا بالمذهب الظاهرى عمر بن أحمد بن موسى الانصارى من أهل طريانة المعروف بابى على الزبار المتوفى سنة ٦٣٧ هـ . فقد جاء فى ترجمته أنه كان ظاهرى المذهب منقبضا عن أبْناء الدنيا متقللا منها، عاكفا على الاستفادة مقيدا مجتهدا فى أعمال البر، زاهدا ورعا، منقطعا الى الله، ملتزما اقراء كتاب الله واكتابه، واحد زمانه صلاحا وسلامة باطن. له مؤلفات فى الحديث منها اختصاره صحيح مسلم اختصارا حسنا، وأضاف اليه زيادات البخارى فى صحيحه فجاء اختصاره أنبل المختصرات واتقنها.

وقد أثنى عليه العلماء وقالوا انه فى عفافه وانكفافه عن الناس كما قال بعض التابعين وقد سئل عن ابن عمر رضى الله عنهما لو كان الناس كابن عمر ما أغلقت أمك بابها(٧٤).

ويقال إنَّ ابن عربى الصوفى المشهور كان ظاهرى المذهب وأنه نشر مؤلفاته، وكتب مختصرا لكتاب المحلى سماه باسم «المعلّى»(٧٥).

وقد نص على ذلك المقرى فى النفح أكثر من مرة، ومن ذلك قوله ومنهم الشيخ الأكبر ذوالمحاسن التى تبهر سيدى محيى الدين بن عربى محمد بن على بن محمد. بن عبدالله الحاتمى، الصوفى الفقيه المشهور الظاهرى (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ)(٧٦).

وفى مكان آخر قال: «وكان ظاهرى المذهب فى العبادات، باطنى النظر فى الاعتقادات»(٧٧).

وجاء أيضا فى ترجمة عبدالله بن أبى عمرو بن بكر بن خلف بن كوثر الغافقى أنه كان ظاهرى المذهب وأنه كان محدثا حافظا دينا فاضلا شجاعا يحضر الغزوات ويبلى فيها البلاء

---

(٧٤) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ـ ترجمة رقم (٤٧٦) ص ٤٤٠ ـ ٤٤١

(٧٥) دائرة المعارف الإسلامية «مادة ابن عربى، جـ ١ ص ٣٤٤، وابن حزم جـ ١ ص ٢٦١

(٧٦) نفح الطيب ـ للمقرى جـ ٢ ص ٣٦١

(٧٧) نفح الطيب ـ للمقرى جـ ٢ ص ٣٦٤

الحسن، مات شهيدا رحمه الله ولم أعثر على سنة وفاته، ولذلك جعلت خبره فى آخر فقهاء الظاهرية[٧٨].

ومن فضلاء العلماء الذين أسهموا فى نشر تراث ابن حزم الفكرى ومذهبه الظاهرى أحمد بن أبى عبدالله محمد بن أبى خليل مفرج الأموى مولاهم: اشبيلى، أبو العباس، وكناه ابن فرتون أبا جعفر المعروف بابن العشاب وابن الرومية.

وكان محدثا حافظا ناقدا ذاكرا تواريخ المحدثين وانسابهم وموالدهم ووفياتهم، وتعديلهم وتجريحهم، سنيا ظاهرى المذهب منحيا على أهل الرأى، شديد التعصب لأبى محمد بن حزم وعنه انتشرت تصانيفه إذا كان قد عنى بها كثيرا واسْتَحْسَنَها وأنفق عليها أموالا جسيمة حتى استوعبها فلم يشذ منها إلا مالا خطر له إن كان قد شذ. مقتدرا على ذلك معانا عليه بجدته ويسره بعد أن تَفَقَّهَ طويلا على أبى الحسين محمد بن أحمد بن زرقون فى مذهب مالك. وكان زاهدا فى الدنيا مؤثرا بما فى يديه منها موسعا عليه فى معيشته، كثير الكتب فى كل فن من العلوم على تفاريعها سمحا لطلبة العلم بها، وَرُبَّمَا وهب منها لملتمسه الأصيل النفيس الذى يعز وجوده ويعظم جدواه، وترتفع قيمته احتسابا... الخ (٥٦١ ـ ٦٣٧ هـ)[٧٩].

ويصفه ابن فرحون بأنه كان اعجوبة الزمان فى عصره وما قبله وبعده فى معرفة النبات وتمييز العشب وتحليلها، واثبات أعيانها على اختلاف أطوارها بمنابت الشرق والغرب، لا مدافع له فى ذلك ولا منازع، حجة لا تردّ ولا تدفع[٨٠].

وقال ابن الخطيب معللا تبريزه بارجاعه الى الرحلة ولقاء الشيوخ وحرصه على الدين: قام على الصنعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات، إذ قوامها الرحلة والتقييد وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان.. الخ.

وله تصانيف حديثية منها : رجالة المعلم بزوائد البخارى ومسلم واختصار حديث مالك. ونظم الدّارى فيما تفرد به مسلم عن البخارى، وتوهين طرق حديث الأربعين. وحكم الدعاء فى

(٧٨) الذيل والتكملة ـ السفر الرابع ـ ترجمة رقم (٣٤٤) ص ١٨٦

(٧٩) الذيل والتكملة ـ السفر الأول ـ القسم الثانى ـ ترجمة رقم (٧٥٨) من ص ٤٨٧ ـ ص ٥١٨

(٨٠) وانظر فى ترجمته وأخباره : الديباج المذهب لابن فرحون ـ جـ ١ ص ١٩٠ ـ ١٩٣
وانظر كذلك الاحاطة ـ لابن الخطيب جـ ١ ، ص ٢١٥ ـ ٢٢١، ونفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ٦٣٤

أدبار الصلوات، وكيفية الآذان يوم الجمعة، واختصار الكامل فى الضعفاء لابن عدى(٨١).

وخلاصة القول فى المذهب الظاهرى أنّه قد أصبح له شأن كبير ولاسيما بعد قيام دولة الموحدين فان هذه الدولة كانت تميل الى الأخذ بالمذهب الظاهرى، ويروى أن أحد خلفاء بنى عبدالمؤمن وهو المنصور الموحدّى لما دخل قرطبة، أو لما وقف على قبر ابن حزم ترحم عليه وقال كل العلماء عيال على ابن حزم(٨٢).

فقد يكون لميل دولة الموحدين الى الأخذ بظاهر نصوص الكتاب والسنة أثر فى اعتناق عدد من العلماء لهذا المذهب، حتى أننا وجدنا من يذهب الى القول بأنّ دعوة ابن مضاء القرطبى الى التجديد فى النحو واطّراح العلل والعوامل والتمارين الصرفية التى لا أصل لها فى اللغة انما ترجع الى تبنى هذا المذهب الذى مالت اليه دولة الموحدين. والله أعلم بالصواب(٨٣).

وهناك اشارات الى بعض المذاهب الإسلامية الأخرى من مثل مذهب الكوفيين والعراقيين(*) ومذهب الأشعرى(**) ، ولكن ذلك كان على نطاق ضيق جدا ومحدود، لا يتعدى عدد أصابع اليد، وهو محصور فى أفراد قلائل على كل حال.

فهناك مثلا اشارات الى مذهب الكوفيين ومن ذلك ما يقال من أن زيد بن بشير كان فقيها على مذهب الكوفيين(٨٤).

ويقال ان محمد بن خالد الأشج كان يذهب فى الأشربة مذهب أهل العراق إذ كان علمه عراقيا(٨٥). وعلى شاكلته كان صهيب بن منيع ويروى أنه كان يشرب النبيذ لعله كان يذهب مذهب أهل العراق(٨٦). وكان قاضي وشقة محمد بن سليمان المعافرى يذهب فى الأشربة مذهب

(٨١) انظر: هامش الديباج المذهب ـ لابن فرحون ـ جـ ١ ص ١٩٣

(٨٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ـ جـ ١ ص ٢٦٠ ، وأصل الخبر فى النفح جـ ٢ ص ١٦٠

(٨٣) د. أحمد الخراط: مجلة كلية الشريعة واللغة العربية بالقصيم العدد الثانى ١٤٠١/١٤٠٢، ص ٣٨٥، ٣٨٦

* ينسب مذهب العراقيين الى الإمام ابى حنيفة رضي الله عنه

** مذهب الامام الأشعرى فى العقيدة.

(٨٤) تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (٤٦١) . والجذوة رقم ٤٤٢

(٨٥) تاريخ علماء الأندلس ـ ترجمة رقم (١١٠١)

(٨٦) جذوة المقتبس ـ ترجمة رقم (٥١٣) ص ٢٤٥

العراقيين وكان مفتى أهل موضعه واليه كانت الرحلة فى وقته ت/ ٢٩٦ هـ .

وفى شعر ابن عبدربه اشارة الى مذاهب أهل العراق فى شرب النبيذ غير المسكر، وان كنت أحسب أن ذلك مجرد عن الاعتقاد أى أنه مجرد قول شاعر يبرر تصرفه فقط وهو قوله:(٨٧)

دِيننا فى السماع دين مدينى .. وفى شربنا الشراب عراقى

ولا ننسى أن نذكر بفتوى ابن لبابة للناصر فى قضية أرض الوقف الخاصة بالأيتام، فانه أفتاه على مذهب أهل العراق، وهذا مذهب اعتقده وأخذ به الفقهاء فى تلك القضية وقضى به قاضى الجماعة وقد عرضت لذلك فى غير هذا الفصل.

وهناك بعض الاشارات الى المذهب الأشعرى، وان كانت قليلة وجاءت متأخرة وربما بعد هجرة علماء الأندلس واختلاطهم بأهل المشرق. ومن ذلك ما يقال من أن عبدالعظيم بن عبدالله بن يوسف البلوى المالقى كان يؤثر مذهب الأشعرية، ويذب عنه مع ميله الى التصوف. (توفى سنة ٦٦٦ هـ)(٨٨).

ومن ذلك أيضا اشارة الى مذهب الأشاعرة نلحظه فى قول أحمد بن خليل بن اسماعيل السكونى المتوفى سنة ٥٨١ وهو اشبيلى لبلى الأصلى استقضى بلبله.

وهو قوله:(٨٩)

واقف الامام الأشعرى تسر على .. .. غَرّاء واضحة الصّوى للسارى

وهى اشارات قليلة ونادرة على العموم.

وخلاصة القول فى شأن المذاهب الإسلامية بالأندلس هى أنه لا نزاع فى سيادة مذهب مالك بن أنس رضى الله عنه فى الأندلس بعد شيوعه على أثر مذهب الأوزاعى، وبعد دخول يحيى بن يحيى الليثى وتمكنه من أمراء بنى أمية.

(٨٧) أبو منصور الثعالبى ـ يتيمة الدهر ـ جـ ٢ ص ٩

(٨٨) ابن الزبير أبو جعفر أحمد بن الزبير ـ صلة الصلة وهو ذيل الصلة البشكوالية فى تراجم علماء الأندلس ـ رقم (٥٠) ص ٣٥ ، ٣٦

(٨٩) الذيل والتكملة ـ السفر الأول ـ القسم الأول ـ ترجمة رقم (١٤٨) ص ١١١ ـ ١١٤

وصحيح أيضا انه فى عصر الحموديين ظهرت فى الشعر اتجاهات تضرب على الوتر الشيعى وخاصة فى ما يتعلق بالمدائح النبوية ومراثى الحسين والتعريض بخصوم آل البيت رضى الله عنهم، ولكن ذلك كان مجرد تزلف من الشعراء الى الحموديين لانتسابهم الى الامام على بن أبى طالب مع العلم أن الحموديين شأنهم فى ذلك شأن الأدارسة كانوا سنيين وعلى مذهب الامام مالك. ولهذا لم يكن لذلك أثر فى اعتناق المذهب الشيعى، وليس له أىّ اشارة فى الفقه والفتيا والقضاء فقضاة الحموديين كانوا من أهل الأندلس وكانوا يقضون وفق تعاليم المذهب المالكى.

ولعل فيما قدمت ما يبرز صورة المذاهب الإسلامية بالأندلس، ويعطى فكرة واضحة عن هذه المذاهب ابتداء بالاجتهاد ومرورا بمذهب الأوزاعى والمذهب الشافعى وانتهاء بالمذهب المالكى فالظاهرى... الخ.

